

[١٩] قصة الحية والسكران^(١)

عن يوسف ابن الحسين يقول : كنت مع ذى النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شطّ الغدير واقفة ، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير ، فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت ، فقال ذو النون : إن لهذه العقرب لشأناً فامض بنا ، فجعلنا نقفو أثرها فإذا رجل نائم سكران ، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربت بها : فانقلبت وانفسخت ، ورجعت العقرب إلى الغدير ، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت ، فحرك ذو النون الرجل النائم ، ففتح عينيه ، فقال : يا فتى ! انظر مما تجاك الله ، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أردتلك ، ثم أنشأ ذو النون يقول :

يا غافلاً والجليل يحرسه من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك تأتبه منه فوائد النعم
فنهض الشاب وقال : إلهى ! هذا فعلك بمن عصاك فكيف رفلك بمن يطيعك ؟ ثم ولى ، فقلت : إلى أين ؟ قال : إلى طاعة الله .



(١) التائبون إلى الله ، للحازمي .

﴿ ٢٠ ﴾ قصة الجساسة

قضى رسول الله ﷺ صلاته وجلس على المنبر وقال : « ليلزم كل إنسان مُصلّاه » ثم قال : « أتدرون لمَ جمعْتُكم ؟ » .
قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : إني والله ما جمعْتُكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ ، ولكن جمعْتُكم لأن تميماً الدارى ^(١) ، كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال .

حدثني أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ، ثم أرفؤوا ^(٢) إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا فى أقرب السفينة ^(٣) ، فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب ^(٤) كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره ^(٥) من كثرة الشعر .
فقالوا : ويلك من أنت ؟ .

ف قالت : أنا الجساسة .

قالوا : وما الجساسة ؟ .

(١) هذا معبود فى فضائل نعيم الدارى عليه السلام ، لأن النبى ﷺ روى عنه هذه القصة ، وفيه رواية الفاضل عن المفضل .

(٢) أرفؤا إلى الجزيرة : أى التجأوا إليها .

(٣) أقرب السفينة : هى سفينة صغيرة تسمى بالقارب تكون مع الكبيرة ، ينصرف فيه ركاب السفينة لقضاء حوائجهم .

(٤) الأهلب : غليظ الشعر كثيره .

(٥) أى مقدمه من مؤخرته .

قالت : أيها القوم ، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ^(١) .

قال : لما سمَّتنا لنا رجلاً فرَّقنا منها ^(٢) أن تكون شيطانة .

قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان ^(٣) رأيناه قط خلقاً ، وأشدُّ وثاقاً ، مجموعةٌ يده إلى عنقه ، ما بين رُكبتيه إلى كعبيه بالحديد .

قلنا : ويلك من أنت ؟ .

قال : قد قدرتم على خبري ، فأخبروني ما أنتم ؟ .

قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم ^(٤) فلعب بنا الموج شهراً ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابةٌ أهلبٌ كثير الشعر ، لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر .

فقلنا : ويلك من أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة .

قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعاً ، وفرغنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة .

فقال : أخبروني عن نخل بيسان ^(٥) ؟ .

(١) أى شديد الأشواق إليه .

(٢) فرقنا : خفنا .

(٣) أعظم إنسان : أى أكبره جثة ، أو أهيب هيئة .

(٤) حين اغتلم : أى هاج وجاوز حده المعتاد ، والاغتلام أن يحاوز الإنسان ما حد له من الخير والمباح .

(٥) نخل بيسان : هي قرية بالشام .

- قلنا : عن أى شأنها تستخير ؟ .
- قال : أسألكم عن نخلها ، هل يثمر ؟ .
- قلنا له : نعم .
- قال : أما إنه يوشك أن لا تثمر .
- قال : أخبروني عن بحيرة طبرية ^(١) ؟ .
- قلنا : عن أى شأنها تستخير ؟ .
- قال : هل فيها ماء ؟ .
- قالوا : هى كثيرة الماء .
- قال : أما إن ماءها يرشك أن يذهب .
- قال : أخبروني عن عين زُغَر ^(٢) ؟ .
- قالوا : عن أى شأنها تستخير ؟ .
- قال : هل فى العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ .
- قلنا له : نعم ، هى كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها .
- قال : أخبروني عن نبي الأُميين ما فعل ؟ .
- قالوا : قد خرج من مكة ونزل يشرب .
- قال : أقاتله العرب ؟ .
- قلنا : نعم .

(١) بحيرة طبرية : هى بحر صغير معروف بالشام .

(٢) عين زُغَر : هى بلدة معروفة فى الجانب القبلى من الشام .

قال : كيف صنع بهم ؟ .

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه .

قال لهم : قد كان ذلك ؟ .

قلنا : نعم .

قال : أما إن ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه ، وإنى مخبركم عنى .

إنى أنا المسيح ^(١) ، وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخُرُوج ، فأخرج فأسيرُ فى الأرض فلا أدعُ قريةً إلا هبطتُها فى أربعين ليلةً غير مكة وطيبة ^(٢) ، فهما مُحرمتان عليّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما ، استقبلنى ملك بيده السيف صلتاً ^(٣) يصدنى عنها ، وإن على كل نقبٍ منها ملائكة يحرسونها .

قالت ^(٤) : قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته فى المنبر :

« هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة » يعنى المدينة .

ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ .

فقال الناس : نعم .

« فإنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق » ^(٥) وأوماً بيده إلى المشرق .

(١) أى : المسيح الدجال .

(٢) طيبة : هى المدينة ، ويقال لها أيضاً : طابة .

(٣) صلتاً : أى مسلولاً .

(٤) أى راوية الحديث فاطمة بنت قيس ، أخت الضحاك بن قيس .

(٥) صحيح ، أخرجه مسلم ١٨/٧٩-٨٣ ، وأبو داود ٤١٠٤١ ، وأبو يونس ٣٨٨/٢٤ ، فى الكبير .

[٢١] من المستأول ؟!! (١)

جلس رجل الأعمال المليونير الكبير فى شرفة فندق الأوراس المطل على البحر المتوسط بالجزائر وظل يتفكر فى حياته ، لقد قضى حياته كلها باندفاع بحثاً عن المال والصفقات فى كل أنحاء العالم حتى أصبح مليونيراً ... وهو يذكر جيداً أن الليالى التى قضاها من عمره فى فنادق العالم أضعاف الليالى التى قضاها فى بيته ... وتذكر المليونير أسرته ... زوجته الصغيرة الجميلة ، وابنه الذى سيأخذ الشعلة منه ، ويدير شركاته وأعماله ، وأخذ رجل الأعمال يتذكر فى أى سنة دراسية يكون ابنه ، فلم يعرف ، كل الذى يدريه أن ابنه بكلية الهندسة .. وأثناء هذه الأحلام .. دق جرس التليفون فى غرفته ... وكانت المكالمة من القاهرة ... والمتحدث على غير العادة شقيقه :

احضر فوراً .. زوجتك تحتضر ...

● انقلها فوراً بالطائرة إلى أوروبا .. أريد أن تعيش وبكى رجل الأعمال لأول مرة فلقد تبخرت آماله فى لحظة .. ولكنه سيضع كل ثروته مقابل أن تعيش زوجته

وفى مطار القاهرة كان شقيقه الأكبر فى انتظاره لم يكن قد رآه منذ سنوات فلقد كان مشغولاً حتى عن زيارته لشقيقه الوحيد .. فلما سلم عليه قال له : تماسك لقد ماتت متأثرة بجراحها .. وبكى .. بكى طويلاً .. ووسط دموعه سأل شقيقه : كيف ماتت ... وأين هى ؟ ... قال : فى المشرحة ...

(١) بتصرف واختصار من كتاب شباب فى دائرة الموت لوجيه أبو ذكري .

- قال الزوج : المشرحة ؟ !! قال : نعم ، والجنائز غداً .. أجلناها حتى تكون من مودعيها .. قال رجل الأعمال : وأين ابني ؟ قال : لم يتمكن من الحضور - حزين عليها - طبعاً ، وساد صمت رهيب ، رجل الأعمال شارد في ماضيه شريط طويل من الذكريات معها ، كانت معه كالنسيم واتجه شقيقه بالسيارة في اتجاه غير اتجاه قصر رجل الأعمال فقال له : إلى أين ؟ فقال الأخ إلى بيتي أولاً .. قال : لماذا ؟ هل تخفى شيئاً ؟ قال شقيقه : لا ، ولكن أرجوك لا تعارضني وبكى شقيقه ، ودخل الشقيقان في غرفة الصالون وأغلق عليهما الباب .. فقال رجل الأعمال : أشعر أن هناك أمراً أعظم من الموت فقال شقيقه : المأساة قاسية .. لا تصدق .. لقد اتصل بي ضابط الشرطة وطلب مني الحضور للقسم فوراً .. وذهبت فوجدت ابنك ممزق الثياب وعلى ملابسه بقع من الدماء .. وفي حالة ذهول يجلس على الأرض وكاد قلبي يتوقف وسألت .. ماذا جرى ؟ .. فنظر إليّ ابنك وارتمى على صدرى وظل يبكي ويبكي ثم سألت الضابط ، فقال لي جملة سقطت بعدها فاقد الوعي . قال : الببه المدمن قتل أمه ! وصرخ رجل الأعمال وهو يستمع إلى شقيقه .. وقال بكلمات صادرة من قلب مكسور .. آه .. لقد انتهت حياتي .

وبدأ الأب في متابعة سماع المأساة .. إن ابنه الوحيد طعن أمه بسكين المطبخ حتى ماتت ثم ذهب إلى قسم الشرطة وقال جملتين فقط : أنا فلان ابن فلان .. قتلت أُمِّي بهذا السكين .. ورفض أن يتكلم بعدها .. كما رفض الإجابة عن أى سؤال .. وفتشوه فوجدوا معه تذكرة هيروين وأمرت النيابة بتشريح الجثة ثم صرحت بدفنها .. هذه هي المأساة .

قال رجل الأعمال : لماذا قتلها ؟ قال شقيقه : لا أحد يعرف حتى الآن ،

وانتهت مراسم الجنازة وودع الرجل زوجته حتى القبر ، وخلال ذلك فشلت الصحافة والشرطة والنيابة فى معرفة الدافع لهذه الجريمة التى فاقت كل حد .

وحللت إحدى الصحف الجريمة فقالت : « هذا الشاب يرفض الحديث ، هو لاشك مدمن هيروين حيث عشر معه على كمية ضخيلة منه وكان فى حاجة إلى مال ، فطلبه من والدته الثرية زوجة المليونير فرفضت فهددها بالسكين فلم تتصور وهى الأم أن يرفع ابنها السكين عليها ، فأصرت على الرفض فنفذ تهديده وقتل أمه .. وعندما سلم نفسه إلى الشرطة كان فى حالة وعى من هول المأساة فشعر بالندم فسكت انتظاراً لحبل المشنقة .. هذا تصورنا للحادث الذى هز المجتمع وكثرت تفسيراته أمام صمت الشاب القاتل الذى فصل من كلية الهندسة حيث عاش أسير الهيروين » قرأ المليونير هذه المقالة فى الصباح قبل أن يذهب إلى ابنه وسأل نفسه : أين كنت يا رجل الأعمال ؟ ابنك كان مفصولاً من الكلية وأنت لا تدري ؟ .. ابنك أدمن الهروين وأنت لا تدري ؟ .. ليت هذه الأموال التى جمعتها تضيع كلها وتعود لى أسرتى .. وذهب الرجل إلى ولده ... وكان لقاءً مؤثراً بين الوالد وابنه .. بعد أن أغلق الحارس الباب عليهما وساد صمت قطعه الابن حين ارتدى فى أحضان أبيه قائلاً : أرجوك ضمنى إلى صدرك بشدة أكثر .. احتاج إلى هذا .. محروم منه .. ما أقسى الحياة .. آسف لم أكن فى وعى ، عاد لى الوعى عندما خرجت نافورة الدم الأولى من جسد أمى .. أبداً لم تكن تستحق هذا .. دعنى لأبكى على صدرك ، فلم أكن أعرف الدموع .. ورجل الأعمال لا يدري ماذا يقول : هل يتعاطف مع ابنه الذى قتل شريكة حياته ؟ لقد أحدث هذا الموقف خللاً فى مشاعره ... برز زلزلاً فى هذه المشاعر .

وبدأ الشاب يروى لوالده : لقد عرفت اليهوديين للتسلية والجنس ولكه قتل في كل شيء .. الطموح والخلق ، ودفعني وأصحابي من المدمنين إلى الجريمة .. سرقتنا ... كم سرقت من أمي ؟ وكم هي اتهمت الشغالة ؟ .. حتى عرفت أنني أتعاطى الهيروين وهددتنى بأنها سوف تبلغك إن لم أتوقف ، فادعيت لها أنني توقفت ... ولكن كل تصرفاتي تفضحني وزادت حاجتي للمال لشراء الهيروين وطلبت مني أمي أن أدخل إحدى المصحات للعلاج فرفضت ، ويندم شديد قال : حتى كان يوم الجريمة ، كنت في حاجة ماسة إلى مال لأشترى هيروين ، وطلبت منها ألف جنيه وأخبرتها أنني صدمت سيارة بسيارتي ولكنها رفضت وإذا بالحاجة إلى الهيروين تدفع إلى رأسى بفكرة جنونية ، هددتها بأنها إذا لم تدفع لي الألف جنيه فسأخبرك بأنها على علاقة برجل ... فصفعتنى وبصقت في وجهي ... وإذا بهذه الفكرة الجنونية الكاذبة تتحول إلى شبه واقع أمامي وأن أمي حقاً على علاقة برجل آخر ، هكذا صور لي الهيروين الوهم حقيقة وتضخمت الأمور أمامي .. وتصورت ما يحدث بين العشيق وعشيقتة ، والعشيقة هنا أمي إذن هذه المرة يجب أن تموت .. وأسهرت إلى المطبخ .. وجئت بالسكين وطلبت الألف جنيه من هذه الخائنة فرفضت فكانت الجريمة البشعة .. وماتت أشرف امرأة في الوجود .. وما أن انتهى الشاب من سرد روايته إلى والده إذ بأبيه يخرج من الغرفة دون كلام أو وداع ونادى الولد على والده ، فلم يرد الوالد ، ثم نادى مرة .. ومرة .. ومرة .. قائلاً : أنت السبب .. أنت السبب وظل الشاب المدمن يقول : إن والده هو السبب وهو الذي دفعه لكل هذا لعدم رعايته له ... الشاب لم يقدم للمحاكمة لقد فقدت البقية الباقية من عقله .. ثم إيداعه مستشفى الأمراض العقلية .. وهو يقول لكل من يقابله : أنت السبب وأمي أشرف امرأة في الدنيا .. أمي أشرف امرأة في الدنيا ...

فى حى الدقى ىوجد مسجد فى ميدانه عندما تدخله لتأدية الصلاة ستجد بداخله رجلاً ىرتدى جلباباً أبيض وىضع أمامه كتاب الله ىقرأ فيه وعندما ىنتهى من التلاوة ىرفع كفيه إلى السماء : اللهم اغفر لى وسامحنى ىارب العالمین ، هذا الرجل هو نفسه رجل الأعمال .. الذى تبرع بكل ما ىملك لإدارة مكافحة المخدرات ... وأخذ من بیت الله مكاناً كى ىرحمه ... وعندما تؤدى الصلاة بجواره سىصافحك بحرارة وىطلب منك بلطف وآدب أن تعطیه من وقتك القلیل وسوف ىروى لك هذه القصة بكل تفاصيلها وسىبکى کثیراً وهو ىسرد القصة ثم سىطرح علیک سؤالاً محیراً ؟ من المستول عن کل هذا ؟ من ؟ من ؟ ..



[٢٢] المزحة القاتلة ^(١)

منذ ودعته لينتقل إلى بلد آخر للدراسة وهي لا تتوقف عن التفكير فيه والحديث مع الجارات عنه .. إنه وحيدها وفلذة كبدها ... لكم اشتاقت إليه .. تنهدت أم أحمد وهي تعد الأيام الأخيرة لابنها في بلاد الغربية البعيدة ...

الحمد لله ... أيام ويعود ... كم اشتقت إليك يا بني ...

وبترأى تخيلنها وهو يلقي بالحقائب ويهرع نحوها ليقبل يديها ويمنحها بسمته الحانية .. ترمق الماضي وتذكر كيف كان يملأ عليها البيت سروراً وسعادة ... وكيف تعبت كثيراً حتى بلغ مبلغ الرجال وصار يشار إليه بالبنان لاجتهاده وذكائه .. شعرت بأنه آن الأوان لتقطف ثمرة جهدها وترى ابنها طيباً ماهراً له مكانته ...

تستيقظ من شرودها على رنين الهاتف ... تنهض من أريكتها وتسرع وهي تعتقد أن الذي سيكلمها هو ابنها ...

لا بد أنه أحمد ... سيخبرني بموعد قدومه .. وترفع السماعة ونبضات قلبها تخفق ... من ... ؟! من المتكلم ؟ .

وتصفعها كلمات حارقة تنبئها بالفاجعة ... ابنك يا أم أحمد لقد اصطدم بسيارته ومات .. تتغير ملامح وجهها وينعقد لسانها .. تصاب بالذهول .. تسقط السماعة من يدها ... تضطرب قليلاً ثم تهوى على الأرض ...

ويقدر الله عز وجل أن يأتيها قريب لها في ذلك الوقت ليسأل عنها ...

يطرق الباب فلا يجيب أحد .. يحرك مقبض الباب فيجده مفتوحاً ...

ترى ما الأمر ؟!

يلج المنزل ليفاجأ بأُم أحمد ملقاة على الأرض غائبة عن الوعي ... يسرع
ينقلها إلى المستشفى ...

ويصل أحمد إلى بلدته ويسرع والشوق يدفعه لرؤية أمه التي يحبها حباً
عظيماً ، وصل البيت وهو يحلم بأنه يزف لأمه بشري نجاحه ، ويدخل المنزل
ليفاجأ بعدم وجود أحد بداخله يسأل عن أمه فيعلم أنها في المستشفى ...
يستقل سيارته ويسرع للإطمئنان عليها ، ينهب بسيارته الأرض ليصل في أسرع
وقت ممكن .. ويمضي دون أن ينتبه لمخاطر الطريق .. وينفجر إطار سيارته عند
منعطف حاد فتقلب سيارته وتتحطم .. يسرع الناس لإنقاذه .. يخرجونه من
السيارة والدماء تغطي جسده ... ينقله أحدهم بسيارته للمستشفى .. يصل وقد
فارق الحياة ... تصحو أمه وتعلم بقصته .. تشهق من شدة الأسى وتنهار ...
لاحول ولا قوة إلا بالله ... لقد ماتت .. !! .



[٢٣] قصة صرع عمر رضي الله عنه لجني

عن أبي وائل رضي الله عنه قال : قال عبد الله رضي الله عنه : لقي الشيطان رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فصارعه ، فصرعه المسلم وأزم بإبهامه ، فقال : دعني أعلمك آية لا يسمعها أحد منا إلا ولى ، فأرسله . فأبى أن يعلمه ، فصارعه . فصرعه المسلم وأزم بإبهامه فقال : أخبرني بها فأبى أن يعلمه ، فلما عاوده الثالثة قال : الآية التي في سورة البقرة ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(١) ، إلى آخرها فقل لعبد الله : يا أبا عبد الرحمن من ذلك الرجل ؟ .

قال : من عسى أن يكون إلا عمر رضي الله عنه .

وفى رواية عنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً : قال : لقي رجل من أصحاب النبي ﷺ رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسى ، فقال له الجنى : عاودنى ، فعاوده ، فصرعه الإنسى ، فقال له الإنسى : إني لأراك ضئيلاً شحيباً كأن ذريعتيك ذريعتا كلب ، فكذلك أنتم معاشر الجن ؟ أو أنت منهم كذلك ، قال لا والله إني منهم لضليع ولكن عاودنى الثالثة فإن صرعتنى علمتك شيئاً ينفعك ، فعاوده فصرعه ، فقال : هات علمنى قال : هل تقرأ آية الكرسي ؟ قال : نعم . قال : إنك لن تقرأها فى بيت إلا خرج منه الشيطان له خبج كخبج الحمار لا يدخله حتى يصبح . قال رجل من القوم : يا أبا عبد الرحمن ، من ذلك الرجل من أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : فعبس عبد الله وأقبل عليه وقال : من يكون هو إلا عمر ؟؟ ^(٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٨٨٢٤/٩ مجمع الزوائد ٧١/٩ ، قال رجال الرواية الثانية رجال الصحيح دلائل النبوة للبيهقى ١٢١/٧ ، ودلائل النبوة لابن نعيم ١٣١ .

[٢٤] الباب المفتوح ^(١)

على الرغم من أنني كنت مشغولاً بدراستي الجامعية إلا أن لدى بعض الوقت أقضيه في مزاوله هوايتي المفضلة - كما يقال - وهي المراسلة
فقد اشتركت في مجلة دولية للمراسلة ... وكانت لي علاقات مع أصدقاء كثيرين في أنحاء العالم ، فقد كنا نتبادل الصور والطوابع ، وفي نهاية السنة الثالثة الجامعية وقبل اقتراب العطلة الصيفية فكرت في أن أسافر لعدة دول ..
أولاً : أتعرف على تلك الدول .

ثانياً : أتعرف على الأصدقاء الذين لي علاقة ببعضهم منذ سنتين أو أكثر .
من الناحية الاقتصادية : الموضوع بالنسبة لي سهل حيث أنني لن أصرف مبالغ كثير ... سأحل ضيفاً على الأصدقاء لمدة يومين أو ثلاثة ... إلى أسبوع .
ومن جهة أخرى سيقوم الأصدقاء بتعريفني على الأماكن الأثرية والمواقع السياحية فسأكون محفولاً مكفولاً .

نظمت خط سير رحلتي من المملكة فقررت أن أزور فرنسا أولاً ثم ألمانيا بعد ذلك أغادر إلى أسبانيا ثم إلى المغرب ثم إلى مصر وأخيراً أعود إلى بلادي .
وخط سيرى هذا رتبته مع العديد من الأصدقاء الذين في هذه الدول ورحبوا بزيارتي ... كما أنني لم أرتبط بحجز للسفر .. بل تركت الأمور حسب ارتياحي في كل دولة ..

أنهيت العام الدراسي ونجحت ولله الحمد بتفوق .. أخبرت أهلي بسفري .. لم يكن لديهم ممانعة في ذلك .. أحضرت آلة تصوير وبعض الأوراق الضرورية .

(١) الزمن القادم * عبد الملك القاسم *

كما أننى لم أنس عناوين وهواتف الأصدقاء .. أقنعت نفسى أننى سأسافر للسياحة .. لا للمظاهر والبهرجة .. لذا اشتريت من الملابس أبسطها .. وحملت من المال ما يكفينى .

لغتى الإنجليزية لم تساعدنى فى محطاتى الأولى حيث يتكلم الشعب الفرنسى اللغة الفرنسية ولكن عندما ركبت سيارة أجرة من المطار إلى مدينة باريس .. عرفت أن اللغة الإنجليزية يتحدثها أصحاب الفنادق والمحلات الكبرى . نزلت فى فندق متواضع وكان الجو بارداً .. وملابسى يبدو أنها لن تقوم بالواجب .. فجسمى بدأ يرتعش من البرد .. الليلة الأولى مضت .

وسرنى أننى عندما اتصلت على صديقى وكان فى مدينة بعيدة عن باريس وأخبرته بقدمى .. أظهر لى السرور وأخبرنى أنه سينتظرنى غداً عند محطة القطار فى مدينته .. فى الغد حملت حقبتى وركبت القطار .. ولا شك أننى عانيت نفسى لكثرة التقاطى للصور .. خوفاً من نفاد الأفلام التى معى .. ولكن المناظر الطبيعية .. تأسرك بجمالها .. قبل وصول القطار بفترة أخرجت صورة صديقى الفرنسى أتفحصها .. لكى أتعرف عليه .. فأنا لم أره ولم يرنى من قبل ، ولم أجد صعوبة عند توقف القطار ونزولنا فى التعرف على صديقى .

سار بنا إلى منزله .. وكان يتكلم الإنجليزية .. لغة المراسلة بيننا ، قضيت أياماً جميلة عندهم .. امتدت لخمسة أيام ، ثم بعد أن شاهدت مدينته وزرت مناطق السياحة فيها .

سافرنا سوياً إلى مدينة أخرى مكثنا فيها يومين ثم عدنا إلى باريس معاً وأمضينا فيها ثلاثة أيام عند أحد أصدقائه .

بعدها غادرت إلى ألمانيا .. نفس المشكلة اللغة من جديد فالألمان لا

يتكلمون إلا اللغة الألمانية ، في ألمانيا ارتحلت أكثر لأن صديقي يملك سيارة .. وهذا ساعدنا على حرية الحركة وإن كان أفقدنا بعض المتعة من السفر في القطار والرحلات الجماعية .

على أية حال .. مكثت في ألمانيا لمدة أسبوع وكان صديقي يمضي إجازة مثلى .. فلم نُقم في منزلهم سوى يوم واحد ، ومن ثم أخذنا في التجوال في ألمانيا ، بل إننا قطعنا مسافة تزيد على خمسة آلاف كيلو متر من الطرق .. وهذا كلفنا ثمن شراء وقود السيارة .. وكان هذا الثمن مناصفة بيننا .

رأيت ألمانيا أكثر من فرنسا .. كما أن صديقي الألماني وضعه المادى جيد وله أقارب في مناطق متفرقة من ألمانيا .. وإن كان أقاربه لم يقدموا لنا شيئاً يذكر ..

غادرت ألمانيا إلى أسبانيا ، وقد خططت لتكون الإقامة أطول فيها .

دمعتك في أسبانيا تسبق نظرك .. ماذا ترى بالأندلس .. ألم تسمع قصيدة الرثاء في سقوط الأندلس .

للكل شىء إذا ما تم نقصانُ	فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ
هى الأمور كما شاهدتها دولٌ	من سره زمنٌ ساءت له أزمانُ

يعتصر قلبك ويعجز لسانك ، أتصف الآثار .. عظمة في الدولة .. وعظمة في البناء .. هذا مآلها ، كلما دخلت مسجداً اهتز قلبي ، كم من الركع ذهبوا ، وكم من العباد دلقوا .. والناس مشغولة ، وهذه الفسيفساء .. وهذا عقد .. وهذا .. كأن الإسلام مباني .

على الرغم من أننى لا أزور المسجد المجاور لنا إلا قليلاً .. لكن مساجد الأندلس تختلف ، بل مرة دخلت مسجد الحى ولم يهتز في جفن .. وأنا

داخل للصلاة .

والآن تهتز جوانحي وأنا سائح .. لا مصل ولا عابد ، حدثني صديقي الأسباني عن عدل المسلمين عندما كانوا هنا .. وحدثني عن معلومات تاريخية لا أعرف صحتها من خطئها .. كل ما هنالك أنني أحرك رأسي عند نهاية كلامه .. لا أجد جواباً .. ولكن قلبي يهتز .

يتحدثون عن التاريخ الإسلامي .. تاريخ آبائي وأجدادي .. ولا أعرف عنه شيئاً .. بل إنني أفكر .. هل أنا من أحفاد من فتح الدنيا .. ؟ غادرت الأندلس وأنا حيران بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى .

وصلت بطريق البحر إلى المغرب .. ثم سافرت بالحافلة إلى قرية صديقي المغربي وكانت بالقرب من الحدود الجزائرية ، أقبلنا على القرية ، قرية وادعة في وسط الصحراء .. تذكرني بقريتي .. لم نحتج للعنوان .

أين بيت جابر .. الكل يعرفه .. وجه غريب .. الكل ينظر إليّ .. أخذني أحدهم عندما عرف أنني قادم من أرض الحرمين .. حمل حقيبتى بإصرار عجيب .. طرقتا الباب .. هذا والد جابر .. لم أعط فرصة لأن أعرف نفسي .. هذا قادم من مكة .. احتضنني .. تفضل .. حفاوة بالغة .. أخجلتني .. لقد كانوا ينتظرون قدومي بشوق منذ أسبوع .. أعدوا لي الحفلات كما ذكروا .. بعد شرب الشاي .. وضعوا لي غرفة مرتبة ..

في المساء .. قالوا إن أهل القرية يريدون أن يروك .. « ماذا .. » يروني .. وضعت على المنصة في الحفلة .. وتكلم مسئول الحفل .. فرحب بي ترحيباً حاراً .. وكان الحفل يضم أغلب أهل القرية إن لم يكن كلهم .. رجالاً ونساءً وأطفالاً .. بعدها تحدث إمام المسجد عن فضل مكة المكرمة والمدينة المنورة ..

ورحب بي .. وكانت المفاجأة الصاعقة لى .. يتحدث إليكم القادم من أرض الوحي من مهبط القرآن الكريم من أرض مكة والمدينة .. كنت قبل أبتسم عندما تحدثوا .. ولكن عندما طلبوا منى الحديث .. تغير لوني .. ارتعدت فرائصى .. انعقد لساني .. لم أعود أن أتحدث فى جمع كهذا .. ثم ماذا أقول .. وأنا طالب الاقتصاد .. لا معلومات شرعية أو ثقافية لدي .

ولكن الله يسر .. فقد تحدثت إليهم عن الحرم والكعبة .. والحج .. وتكلمت كثيراً عن الحج فهو موضوع بسيط درسته منذ القدم ولدي معلومات سنوية متجددة من خلال الأعوام خلال موسم الحج .. ودعوت الله أن يحجوا إلى مكة .. فكان أن تعالت الأصوات والبكاء .. والتأمين .

خفت من الموقف خوفاً من الله .. بدأت أتحدث بشكل منفعل وكأنتى أحاطب نفسى بالتوبة .. خنقتى العبرة وأنا أتحدث .. فبكيت .. سكت الجميع برهة .. وأنا أصابنى ذهول من نفسى .. كأنتى فى حلم عجيب ...

قام الجميع يسلمون علىّ ويتحدثون بكلام لا أفهمه .. نصفه بكاء ونصفه الآخر بلهجة محلية .. بعد هذا المشهد وكأنتى أشاهد تمثيلية وأنا بطلها .. دُعينا إلى العشاء .. وكان عشاء يكفى لجميع الحاضرين .. لكننى لم أكن أتألف بالأكل .. فى داخلى شىء لا أعرفه .. ذهبت إلى غرفتى وأغلقت الباب على نفسى وبكيت .. بل إننى وضعت وجهي على وسادتي .. حتى ابتلت من الدموع حاولت أن أخفض صوتى حتى لا يسمعى أهل البيت ..

لا أعلم متى توقفت عن البكاء .. ولكن النوم غلبنى وأنا أبكى .. ولعل عناء السفر ساعدنى على النوم .. طُرق الباب علىّ .. صلاة الفجر .. خرجت إلى المسجد .. وصليت بخشوع قلب .. وبكيت فى الصلاة .. أصبحت شارد

الذهن .. لا أعلم ما أصابني .. لا أعلم كيف قضيت أيامي .. لكن ليالي كانت بكاء وكان الشرود بادياً عليّ في النهار ..

قررت أن أعود إلى بلادي .. رغم إصرارهم على المكوث .. ولكنني عازمت على العودة .. وكان خط سيرى إلى جدة .. انتقلت من جدة إلى مكة .. ومكثت أسبوعاً في الحرم .. لا أخرج إلا لحاجة ضرورية .

بدأت أقرأ القرآن بتمعن .. أصلي بخشوع .. أطوف بطمأنينة ..

أين أنا عن كل هذا ؟؟ .. أين السنوات الماضية ؟؟ ..

لم أستطع أن أراجع حساباتي .. لأنه يغلبني البكاء .. والندم الشديد .. كنت إذا تفكرت في الماضي .. أفتح المصحف وأقرأ .. دموعي لا تفارقني .. أين هذه الدموع في السنين الماضية .. لا أعلم .

هدأ روعي تلك الدروس التي تقام في الحرم .. اشتريت كتاباً بعنوان : « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

وأخر عنوانه : واحات الإيمان لعبد الحميد البلالي .

وقبل هذا وذاك ..

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب ..



[٢٥] قصة الرغيف^(١)

استدعى نائب مصر يوماً ابن الفرات فقال له : ويحك إن نيتي فيك سيئة ،
وانني في كل وقت أريد أن أقبض عليك وأصادرك فأراك في المنام تمنعني
برغيف ، وقد رأيت في المنام من ليال ، وانني أريد القبض عليك فجعلت تمتنع
عليّ ، فأمرت جندي أن يقاتلوك ، فجعلوا كلما ضربوك بشيء من سهام
وغيرها تتقي الضرب برغيف في يدك فلا يصل إليك شيء ، فأعلمني ما قصة
هذا الرغيف ؟ .

فقال : أيها الوزير إن أُمِّي منذ كنت صغيراً كل ليلة تضع تحت وسادتي
رغيفاً فإذا أصبحت تصدقت به عني ، فلم يزل كذلك دأبها حتى ماتت ، فلما
ماتت فعلت أنا ذلك مع نفسي ، فكل ليلة أضع تحت وسادتي رغيفاً ثم أصبح
فأتصدق به فعجب الوزير من ذلك .. وقال : والله لا ينالك مني بعد اليوم سوء
أبدأ .. ولقد حسنت نيتي فيك وقد أحبيتك .



(١) الفرج بعد انشدة والضيق ، للحارمي .

[٢٦] منام ويقظة ^(١)

قال الشيخ الكبير : اسمع يا أخى فإنى محدثك بقصتى العجيبة التى جعلتنى أؤمن بالله وأخشاه وأحرص على طاعته ورضاه .
قلت : تفضل وحدثني فكلي أذان صاغية .

قال الشيخ العجوز : أويت إلى فراشى ذات ليلة وليس فى بدنى أدنى مرض واستغرقت فى نومى كعادتى ، ولكنى رأيت فيما يرى النائم حلماء ليس كالأحلام ، وأمرأ عجباً لا أنساه على الأيام ، ودرساً بليغاً مؤثراً ما امتدت بى الأعوام ، فقلت له : تفضل بحلمك هذا فقد شوقتنى إليه وجذبت اهتمامى بأمرك أعظم الاهتمام فما الذى رأيت ؟ وما الدرس البليغ الذى تعلمت ؟ .

قال الشيخ : لقد رأيت فى المنام أنى قدمت وحملت إلى قبري ، وبعد أن وسدت فى مشواى ، جاءنى رجلان فأجلسانى وسألانى عن ربى ونبىي ، فأجبتهما الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد ﷺ نبي الله إلى العالمين ، ثم قال الشيخ ؟ ليت الأمر انتهى إلى هنا فقلت : وماذا بعد ذلك ؟ .

قال : لقد أريانى بركة من القطران المغلى لها أول وليس لها آخر ، تفور وتغلى وتزبد وترغى ، وبجانبيها بلاط محمي بالنار ، وعليه أناس يتوضأون من القطران يشوى وجوههم ويسقط لحومهم ثم يصلون على ذلك البلاط المحمى وملائكة العذاب بأيديهم مقامع من حديد ، لتذيقهم أصناف الشقاء والتعذيب ثم التفت إليّ أحد الملائكة وقال : هذا جزاء تارك الصلاة ، انظر إليهم إنهم

(١) وقائع أغرب من الخيال ، لعلي أحمد عثمان .

يقتضون كل صلاة فاتتهم في الدنيا ، ويذوقون جزاء تفریطهم في أول الواجبات وأهم المفروضات ، والجزاء من جنس العمل .

قال محدثي الشيخ : وبينما كنت أنظر إلى هذا المشهد المؤلم الخيف ، وأرى فوران القطران ، وإذا بقطرات المغلي تصيب جلدي وتحرق رجلى في عدة مواضع ، فتؤلمني أشد الألم ، واستيقظت من فوري وأنا أتلوى من شدة الألم ، وأصبح من شدة العذاب ، ونظرت في رجلى بعد استيقاظي فوجدت آثار الاحتراق عليهما في عدة مواضع كما رأيت في المنام .

والحقيقة أنني تعجبت مما سمعت أشد العجب ، فساورني بعض الريب بادئ ذي بدء ، ولكن الرجل كشف عن رجليه الغطاء وأراني بألم عيني آثار ما أصابه من بلاء ، وعلامات ما ذاقه من عذاب .

ثم أردف قائلاً : أقسم بالله العظيم الذي لا إله إلا هو أنني ما أخبرتك إلا بالحق وما حدثتك إلا بما حدث لي ، كان الرجل قد اعتاد المسجد محافظة على الجماعة فيه ، فلا يتخلف إلا لمرض مقعد أو عذر قاهر مجهد ، وكنت أتوسم فيه أن يكون من السبعة الذين قال عنهم رسول الله ﷺ :

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » كنت متعجباً من تقوى هذا الشيخ الوقور ، وكنت أرى تمسكه الشديد بطاعة ربه وحرصه المتين على اتباع سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولم أكن

أعرف سر تدينه والسبب في شدة تمسكه بإسلامه قبل هذا اليوم ، ثم أردف الشيخ قائلاً : لقد بقيت والله ستة أشهر لا أستطيع المشي على قدمي ، ولا أحسن الوقوف عليهما واستمر الألم ستة شهور حتى من الله علي بالشفاء ، ولم يبق إلا أثار الحروق التي رأيتها ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم استغفرت ربي وتبت إليه عن كل ما فرط مني وصدر عني من ذنوب ، ولقد حمدت ربي في قرارة نفسي وقلت في سري كما علمت عن رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً .

ثم قال الشيخ : هل تعلم سر مجازاتي بهذا البلاء ؟ قلت : الله تعالى أعلم ، فقال : لقد كنت عاصياً لله تعالى ، آكلاً للمال الحرام ، ولذلك فإن كل قطرة أصابتنى تشبه الدينار الذهبي وقد جازاني ربي ببعض ما أستحق وإنه لخير لي ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (١) ، وأردف قائلاً لقد كانت هذه الحادثة المؤلمة نقطة تحول في حياتي وبداية توبة وإنابة إلى ربي ، وفاحة صفحة جديدة مع خالقي ، فمنذ أن شفاني برحمته وأذهب عني الألم لأزال كما تراني حريصاً على الجماعة في المسجد ، بعيداً ما استطعت عن كل معصية لله ومخالفة لأمره ، ولقد أعدت للناس ما سلبت ونلت مسامحتهم قبل الأجل والمحاسبة عن كل عمل .

لقد بقيت هذه القصة لا تغيب عن بالي وأثرت في نفسي تأثيراً بالغاً ، ودفعتنى إلى المحافظة على الطاعة وحقاً إنها لعبرة لمن يعتبر .

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

[٢٧] سوء الخاتمة ^(١)

قال الراوي : صحبنا علي ظهر سفينة نجول بها حول البلدان طلباً لرزق الله في أرضه شاب صالح ، نقي السريرة ، طيب الخلق ، كنا نرى التقى يلوح في قسّمات وجهه ، والنور والبشر يرسمان على محياه ، لا تراه إلا متوضئاً مصلياً ، أو ناصحاً مرشداً ، إن حانت الصلاة أذن لنا وصلى بنا ، فإن تخلف أحد عنها أو تأخر عاتبه وأرشده ، وكان معنا على هذه السجية طيلة أسفارنا .

وألقى بنا البحر إلى جزيرة من جزر الهند فنزلنا إليها ، وكان ما تعود عليه البحارة أن يستقروا أياماً ثم يرتاحون فيها ويستجمعون بعد عناء السفر الطويل ، يتجولون في أسواق المدينة ليشتروا أغرب ما يجدون فيها لأهلهم وأبنائهم ثم يرجعون إلى السفينة في الليل ، وكان منهم نفر من أضل الله يتيمم أماكن اللهو والهوى ومحال الفجور والبغاء ، وكان ذلك الشاب الصالح لا ينزل من السفينة أبداً ، بل يقضى هذه الأيام يصلح في السفينة ما احتاج منها إلى إصلاح ، فيفتل الحبال ويلفها ، ويقوم الأخشاب ويشدها ، ويشغل بالذكر والقراءة والصلاة وقته ذاك .

قال الراوي - وعينه ترقق بالدموع وتنحدر على لحيته - : وفي إحدى السفرات وبينما كان الشاب منشغلاً بأعماله تلك إذا بصاحب له في السفينة ممن أتبع نفسه هواها وانشغل بطالح الأمور عن صالحها ، وبسافل الأخلاق عن عاليها يهامسه ويقول :

(١) من شريط للشيخ أحمد القطان ، كتاب ٢٧٠ قصة وقصة للشهاوى .

صاحبي ، لم أنت جالس في السفينة لا تفارقها ؟!! لم لا تنزل حتى ترى دنيا غير دنياك ؟ ترى ما يشرح الخاطر ويؤنس النفس ! أنا لم أقل لك تعال إلى أماكن البغاء وسخط الله ، ولا إلى البارات وغضب الله ، وهيهات يا صاحبي ، لكن تعال فانظر إلى مُلَاعِبِ الثعابين كيف يتلاعب بها ولا يخافها ، وإلى راكب الفيل كيف يجعل من خرطوم له سُلماً ، ثم يصعد برجليه ويديه حتى يقيمه على رجل واحدة ، وآه لو رأيت من يمشي على المسامير أتى له الصبر ، ومن يلقم الجمر كأنما هو تمر ، ومن يشرب ماء البحر فيسيغه كما يسيغ الماء الفرات ، يا أخى انزل وانظر الناس ! ، فتحركت نفس الشاب شوقاً لِمَا سمع ، فقال :

وهل في هذه الدنيا ما تقول ؟ .

قال صاحب السوء : نعم ، وفي هذه الجزيرة ، فانزل ترى ما يسرك ، ونزل الشاب الصالح مع صاحبه ، وتجولا في أسواق المدينة وشوارعها حتى دخل به إلى طرق صغيرة ضيقة ، فأنتهى بهما الطريق إلى بيت صغير فدخل الرجل البيت وطلب من الشاب أن ينتظره وقال : سأتيك بعد قليل ولكن ! إياك إياك أن تقترب من الدار ، جلس الشاب بعيداً عن الباب يقطع الوقت قراءة وذكرًا وفجأة إذا به يسمع قهقهة عالية ، ليُفتح الباب وتخرج منه امرأة قد خلعت جلباب الحياء والمروءة .

أواه !! إنه الباب نفسه الذى دخل فيه الرجل ، وتحركت نفس الشاب فدنا من الباب وبصيح سمعه لما يدور في البيت وإذا به يسمع صيحة أخرى ، فنظر من شق الباب ويتبع النظرة أختها لتتواصل النظرات منه وتتوالى وهو يرى شيئاً لم يألفه ولم يره من قبل ، ثم رجع إلى مكانه ولما خرج صاحبه بادره الشاب

مستنكراً : ما هذا ؟ !! ويحك !! هذا أمر يغضب الله ولا يرضيه ، فقال الرجل : اسكت يا أعمى يا مغفل ، هذا أمر لا يعينك .

قال الراوي : ورجعنا إلى السفينة في ساعة متأخرة من الليل ، وبقي الشاب ساهراً ليلته تلك ، مشغول الفكر فيما رآه ، قد استحكم سهم الشيطان من قلبه ، وامتلكت النظرة زمام فؤاده ، فما أن بزغ الفجر وأصبح الصباح حتى كان أول نازل من السفينة وما في باله إلا أن ينظر فقط ، ولا شيء غير أن ينظر ، وذهب إلى ذلك المكان ، فما أن نظر نظرتة الأولى وأتبعها الثانية ، حتى فتح الباب وقضى اليوم كله هناك واليوم الذي بعده كذلك فافتقده ربان السفينة وسأل عنه : أين المؤذن ؟ أين إمامنا في الصلاة ؟ أين ذلك الشاب الصالح ، فلم يجبه من البحارة أحد ، فأمرهم أن يتفرقوا للبحث عنه فوصل إلى علم الربان من ذهب به إلى ذلك المكان فأحضره وزجره وقال له : ألا تتقى الله ألا تخشى عقابه ؟؟ ، عجل اذهب فأحضره ، فذهب إليه مرة بعد مرة لكن دون جدوى فلم يستطع إحضاره لأنه كان يرفض ويأبى الرجوع معهم ، فلم يكن من قائد السفينة إلا أن أمر عدة من الرجال يحضروه قسراً فسحبوه بالقوة وحملوه إلى السفينة .

قال الراوي : وأبحرت السفينة راجعة إلى البلاد ومضى البحارة إلى أعمالهم وأخذ ذلك الشاب في زاوية من السفينة يبكي ويئن حتى لتكاد نياط قلبه أن تنقطع من شدة البكاء ، ويقدمون له الطعام ولا يأكل ، وبقي على حاله البائسة هذه بضعة أيام ، وفي ليلة من الليالي ازداد بكاءه ونحيبه ولم يستطع أحد من أهل السفينة أن ينام فجاءه ربان وقال له : يا هذا اتق الله ، ماذا أصابك لقد أقلقنا أنينك فما نستطيع أن ننام ، ويحك ما الذي بدل حالك ، ويلك ما الذي

دهاك ، فرد عليه الشاب وهو يتحسر : دعنى فإنك لا تدري ما الذى أصابنى ؟ فقال الريان : وما الذى أصابك ؟ عند ذلك كشف الشاب عن عورته وإذا الدود يتساقط من سوائه ، فانزعج ريان السفينة وارتعش لما رأى وقال : أعوذ بالله من هذا وقام عنه الريان وقبيل الفجر قام أهل السفينة على صيحة مدوية أيقظتهم وذهبوا إلى مصدرها فوجدوا ذلك الشاب قد مات وهو ممسك خشبة السفينة بأسنانه ، استرجع القوم وسألوا الله حُسن الختام ، وبقيت قصة هذا الشاب عبرة لمن يعتبر أ . ه .



[٢٨] عيب يا بابا ^(١)

كان يقطن مدينة مسلمة ، يعيش في ضياع ، ولا يعرف الله إلا قليلاً . منذ سنوات لم يدخل المسجد ، ولم يسجد لله سجدة واحدة ، وكان يسهر حتى الفجر مع رفقاء السوء في لهو ولعب وضياع ، تاركاً زوجته المسكينة وهي تعاني من الوحدة والضيق والألم ، عجزت تلك الزوجة الصالحة الوفية ، فهي لم تدخر وسعاً في نصحه وإرشاده ولكن دوى جدوى .

وفي إحدى الليالي جاء من إحدى سهراته العابثة ، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً ، فوجد زوجته وابنته الصغيرة وهما تغطان في سبات عميق ، فاتجه إلى الغرفة المجاورة ليكمل ما تبقى من ساعات الليل في مشاهدة بعض الأفلام الساقطة من خلال جهاز الفيديو ، فجأة فُتح باب الغرفة فإذا هي ابنته الصغيرة التي لم تتجاوز الخامسة بعد ، نظرت إليه نظرة تعجب واحتقار وبادرته قائلة : « يا بابا ، عيب عليك ، اتق الله » ، ورددها ثلاث مرات ، ثم أغلقت الباب وذهبت .

أصابه ذهول شديد ، فقام بإغلاق جهاز الفيديو وجلس حائراً ، وكلمات ابنته الصغيرة لا تزال تتردد في مسامعه وتكاد تقتله ، خرج في أثرها فوجدها قد عادت إلى فراشها ، أصبح كالمجنون لا يدري ما الذي أصابه في ذلك الوقت ، وماهى إلا لحظات حتى انطلق صوت مؤذن من المسجد القريب ليمزق سكون الليل الرهيب .

توضاً وذهب للمسجد ولم تكن لديه الرغبة في الصلاة ولكن أراد أن

يتخلص من الضيق الذي يشعر به ، وما إن سجد ووضع جبينه على الأرض حتى انفجر ببكاء شديد لا يعلم له سبباً ، فهذه أول سجدة يسجدها الله - عز وجل - منذ سبع سنوات ، ومع البكاء أحسَّ بأن الإيمان بدأ يسري في داخله ؛ لقد أخرج معه ذلك البكاء كل ما في قلبه من كفر ونفاق وفساد .

وبعد الصلاة جلس في المسجد قليلاً ، ثم رجع إلى بيته فلم يذق طعم النوم ، ذهب لعمله وعندما دخل على صاحبه استغرب حضوره مبكراً فقد كان لا يحضر إلا في نهاية الدوام بسبب السهر في الليل ، ولما سأله عن السبب أخبره بما حدث البارحة ، فقال له : أحمدُ الله أن سخرَ لك هذه البنت الصغيرة التي أيقظتك من غفلتك ، ولم يرسل لك ملك الموت ليقبض روحك وأنت على تلك الحالة .

وفي نهاية العمل عاد إلى بيته لينال قسطاً من الراحة وهو في شوق لرؤية ابنته الصغيرة التي كانت سبباً في هدايته ورجوعه إلى الله ، دخل البيت فاستقبلته زوجته وهي تبكي فقال لها : مالك يا امرأة ؟ فجاء جوابها كالصاعقة : لقد ماتت ابنتك .. لم يتمالك نفسه من هول الصدمة ، وانفجر في البكاء ، وبعد أن هدأت نفسه تذكر أنَّ ما حدث له كان ابتلاءً من الله يختبر إيمانه ، فحمد الله - تعالى - وقام بالاتصال بزميله ، وطلب منه الحضور لمساعدته ، حضر صاحبه وأخذ الطفلة وغسلها وكفنها ، وصلوا عليها جميعاً ، ثم ذهبوا بها إلى المقبرة فقال له صاحبه : لا يليق أن يدخلها في القبر غيرك ، فحملها والدموع تملأ عينيه ووضعها في اللحد وهو يقول :

« أنا لا أدفنُ ابنتي وإنما أدفنُ النور الذي أضاءَ لي الطريقَ ... أنا لا أدفنُ ابنتي وإنما أدفنُ النور الذي أضاءَ لي الطريقَ ... » . أ . هـ .

فيها لها من عظة وعبرة ، فهل من معتبر !!؟ .

[٢٩] اليمين على من أنكر ^(١)

اقترض السيد « ... » من الحاج إبراهيم مبلغاً من المال على أن يرده إليه في نهاية العالم المقبل ... وسجل المبلغ في دفاتر الحسابات ، وأبدى السيد « ... » شكره وامتنانه وأصر على كتابة كمبيالة ، ولكن الحج إبراهيم الرجل الصالح قال له : لا شكر على واجب وبينى وبينك الله فهو نعم الوكيل ونعم الشهيد ، وبعد سنة تقريباً مات الحاج إبراهيم بالسكتة القلبية ... وترك زوجة وأربعة أطفال أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره ، وراجعت الزوجة دفاتر زوجها المتوفى وسجلاته التجارية فعرفت ما لزوجها من ديون على الناس ، فبعثت إلى السيد « ... » تطالبه بما لزوجها عليه من دين ، ولكن السيد « .. » أنكر أنه مدين بشيء لزوجها ، وزعم أنه دفع ما كان عليه من دين لزوجها .. وتسامع الناس بما حدث وانقسم الناس إلى قسمين : قسم يؤيد ورثة الحاج إبراهيم ويذكرون أنه كان رجلاً صالحاً يقرض النقود حسبة لله بدون مستند أو كمبيالة وقسم يؤيدون السيد « .. » بأنه ليس من المعقول أن يدفع الحاج إبراهيم مبلغاً من النقود للسيد « .. » بدون مستند أو كمبيالة ، والتجأت زوج الحاج إبراهيم إلى بعض أهل الخير ليحملوا السيد « ... » على تبدل موقفه والاعتراف وسداد ما أخذ ، ولكنه أعرض وأصر وتمادى واستكبر كأنه صخرة عاتية ، فقامت الزوجة بعرض شكواها على المحاكم ... وجاء يوم المحاكمة ، وحضر المتهم إلى ساحة المحكمة ... يقول الحاكم في القضية « كنت في قرارة نفسي مقتنعاً بأن

(١) عدالة السماء ، محمود شيت خطاب ، بتصرف واختصار .

السيد « ... » مدين للحاج إبراهيم بهذا المبلغ ، ولكن لم يكن هناك دليل مادي غير تسجيل هذا المبلغ بخط الحاج إبراهيم في سجل ديونه على الناس ، وهذا الدليل وحده لا يكفي لإثبات التهمة ، وأفاد السيد « ... » بأنه أعاد المبلغ إلى صاحبه بعد سنة ، وشهد أحد الرجال بأنه سمع السيد « ... » يثنى على الحاج إبراهيم ويذكر أنه انتشله من الفقر والحرمان باقراضه بعض المال حسبة لله .

ويقول الحاكم : كانت القضية كلها كريشة في مهب الريح ، فحاولت أن أجر المتهم إلى الاعتراف بالدين لكنه كان يفلت من الاستجواب ... إن المحاكم في مثل هذه القضية تطبق المبدأ القضائي البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .. وقلت للمتهم : هل تقسم بالقرآن الكريم بأنك لست مديناً للحاج إبراهيم بهذا المبلغ ولا بغيره ، وإنك دفعت ما كان له عليك من دين ؟ .

وقال المتهم : أقسم ... ثم أقسم .. ونطقت بالحكم : البراءة .

وخرج المتهم مرفوع الرأس شامخاً من المحكمة وكان قوى البنية صحيح البدن سليماً معافى في ريعان الشباب ، وما كاد يغادر المحكمة إلا وسمعت ضجة فأسرعت لأتبين الأمر ، فإذا بالسيد « ... » قد سقط على الأرض ميتاً على عتبة المحكمة وهتف الناس من حوله : لقد مات .. لقد مات .. يقول راوي القصة كانت زوجة الحاج إبراهيم تسكن قريباً من داري ، واشتقت أن أسمع الخبر منها ، فكان مما قالته ، « كان المرحوم الحاج إبراهيم باراً بجيرانه خاصة ، وبالناس عامة ، وكان يقرض المحتاجين ويكتفى بتسجيل قرضه في سجل خاص ، وكنت ألومه على ذلك فيقول : مال مال الله وقد كنت فقيراً فأغنانى الله ... وشهدت محاكمة السيد « ... » وحكم القاضي بالبراءة ، فلما أقسم

اليمين اقشعر بدنى ، فقد كنت مؤمنة بأنه كاذب وأنه اجتراً على كتاب الله تعالى وقلت أخاطب الله : اللهم إني أعلم السر وأخفى وإني غلام الغيوب اللهم إن كان السيد « ... » كاذباً في قسمه ويمينه فاجعله عبرة للناس يا قوى يا جبار .

وخرج المتهم من المحكمة وأنا أنظر إليه ولكنه سقط ميتاً على عتبة المحكمة لقد نجا السيد « .. » من حكم الأرض ولكنه لم ينج من حاكم الأرض والسموات .

وفي ليلة من ليالي الشتاء حيث كان الناس يأوون إلى مضاجعهم وفي ساعة متأخرة من الليل كان جرس دار الحاج إبراهيم يرن قوياً ، وكان على الباب امرأة متحشمة بالسواد يرافقها طفل في السادسة من عمره ... وفتحت زوجة الحاج إبراهيم الباب لترى من الطارق فوجدت زوج السيد « ... » ومعها ولدها الوحيد .

وقالت زوج السيد « ... » للسيدة زوج الحاج إبراهيم : « لقد أنكر زوجي بأنه مدين للحاج إبراهيم وكنت أعرف بأنه كاذب ورجوته أن يسدد ما عليه من دين وألححت عليه ولكنه مضى في غيه .. لقد دفع زوجي ثمن كذبه غالياً ، وهذا هو المبلغ الذي كان مديناً به لزوجك ، وألقيت إليها بالمبلغ وانصرفت » .

وكانت القصة عبرة وعظة ، فهل من معتبر !!؟ .



﴿ ٣٠ ﴾ واشتكي البحير

عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال : سافرت مع رسول الله ﷺ فرأيت منه شيئاً عجيباً ، نزلنا منزلاً فقال : « انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل : إن رسول الله ﷺ يقول لكما أن تجتمعا » .

فانطلقت فقلت لهما ذلك ، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها ، فمرت كل واحدة إلى صاحبتهما فالتقيا جميعاً ، ف قضى رسول الله ﷺ حاجته من ورائهما ، ثم قال : « انطلق فقل لهما : لتعد كل واحدة إلى مكانها » ، فأتيتهما ، فقلت ذلك لهما ، فعادت كل واحدة إلى مكانها .

وأنته امرأة فقالت : إن ابني هذا به لم « مس شيطاني » منذ سبع سنين يأخذه كل يوم مرتين ، فقال رسول الله ﷺ « أدنيه » فأدنته منه فتنفل في فيه « فمه » وقال : « اخرج عدو الله أنا رسول الله » .

ثم قال لها رسول الله ﷺ : « إذا رجعنا فأعلمينا ما صنع » ، فلما رجع رسول الله ﷺ استقبلته ومعها كبشان وأقط « جبن جاف » وسمن فقال لى رسول الله ﷺ « خذ هذا الكبش فاتخذ منه ما أردت » ، فقالت : والذي أكرمك ما رأينا شيئاً منذ فارقنا .

ثم أتاه بعير ، فقام بين يديه ، فرأى عينيه تدمعان ، فبعث إلى أصحابه فقال : « ما لبعيركم هذا يشكوكم ؟ » ، فقالوا : كنا نعمل عليه فلما كبر وذهب عمله تواعدنا عليه لنحره غداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تنحروه واجعلوه فى الإبل يكون معها » قال : فوسمه بسمه الصدقة ثم بعث به ^(١) .

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبي .